

الأصيل والدّخيل في رأى أبي العلاء المعرّي

مهدي عابدي جزيني (الكاتب المسؤول)*

عسگر علی کرمی**

الملخص

قضية العجمة والكلمات الوافدة إلى العربية قد شغلت أذهان اللغويين العرب منذ القدم، ولكلّ منهم موقفه الخاصّ تجاه هذه القضية. فأبو العلاء المعرّي باعباره أحد أهمّ العلماء الملمّين باللّغة والمالكين بزمامها، أبدى اهتماماً بهذه القضية وله مساهمات نشطة في هذا الصّد.

فهذا البحث باتّخاذ الموقف النقدي - التحليلي (معتمداً على المنهج الصرفي) يحاول أن يحدّد البصمات الأساسية لموقف أبي العلاء من العجمة والوافد في اللّغة العربية في آثاره الشهيرة، فبدا لنا من خلال البحث والاستنتاج أنّ أبا العلاء في بحثه عن "الأصيل والدخيل" كان ينطلق من المقابلة بين الأعجمي والعربي ويعالج الفارسية باعباره أكثر الألسنة تأثيراً في اللّغة العربية. وهو يبدي معرفة أصيلة بهذه اللّغة فيقوم بذكر أصل المعرب في لغته ويعالج ما يطراً على أصوات اللّفظ في لغتها الأمّ من تغيير عند تعريبها. إنّ عدم الإلمام بالأصل العربي لبعض المداخل مسألة كانت لها بصماتها في المعالجة المعجمية العلائية وقد يتأتّى ذلك في مظهرين أولهما تقريرى بالسلب بنفي الأصل العربي وثانيهما تبريري بالإثبات بإقرار الإستعمال من جانب القُدّامي، ولتجنّب هذه المشكلة يعتمد على المعطيات الصّرفية ويتخذ من الوزن وحروف الزيادة مقياساً به يحكم للمادّة أو عليها بالإنتماء، وهو يتعامل مع مسألة الدالّ والمدلول على أساس منطقي ويعيد كلّ دالّ إلى معناه اللغويّ الذي أفاده في أصل وضعه.

الكلمات الدليلية: أبو العلاء المعرّي، الأصيل والدّخيل، العجمة.

*. أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان، اصفهان، إيران
mehdiabedi1359@yahoo.com

** . أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان، اصفهان، إيران
تاريخ الاستلام: ١٤/٤/١٣٩٥ش
تاريخ القبول: ١١/١٠/١٣٩٥ش

المقدمة

ما من لغة إلا وتأثرت وأخذت من غيرها ألفاظاً شتى، وتعابير ومصطلحات متنوّعة، انسجماً مع طبيعة الحياة، وروح التطوّر، إذ لا لغة بلا مجتمع، ولا مجتمع بغير لغة، ولا مجال لأيّ تطوّر بشريّ وإنسانيّ إلا بالتعاون المثمر والمفيد عبر علاقات متنوّعة، تزيد من عمليّة التّحاور والتّخاطب والتّواصل، وأعظم وسيلة لتحقيق هذه المقومات هي اللّغة.

ولا يخفى على أحد ما كان للعرب من صلّات وعلاقات منذ الجاهلية حتّى اليوم مع جيرانهم وسائر الدّول والشّعوب التي يتبادلون معها المنافع والإمكانات والخبرات، ودائماً يكون للعلاقات بين الدول أثر ذو حدّين، إذ هناك تأثير وتأثر. ومن هنا فإنّ كلّ لغة تأخذ وتقدّم، تهضم ما يتلاءم مع قياساتها اللّغوية، وتُدخل ما تراه مناسباً لتلحق بركب الحضارة والتطوّر الذي ينمو يوماً بعد يوم.

وكما أنّ تأثر اللغات ببعضها ظاهرة حدثت في الماضي ونشهداها في الحاضر، فإنّ مقاومة الألفاظ الدّخيلة ومحاولة الاستعاضة عنها بأخرى أصيلة، أمر سجّلته كتب التاريخ ونراه في عصرنا الحالي، حيث يرى الكثير من الرّاعيين في الحفاظ على نقاوة لغاتهم، أنّ الأصيل أولى من الدّخيل، وذلك لعدّة أسباب أوّلها أنّ الألفاظ الأصيلة وإن كانت مستحدثة عادة ما تكون أكثر اتساقاً مع نظام اللّغة الصّوتي والصّرفي.

لكن أهمّ سبب يدفع البعض إلى تفضيل الأصيل على الدّخيل في اللّغة، هو الرغبة في الحفاظ على وحدتها لأغراض عدّة، فالألفاظ الأصيلة خصوصاً في المجالات العلمية تقلّل صعوبة المفاهيم التي تعبّر عنها وتزيل الهالة التي حولها عند العوامّ؛ فتقلّل بذلك الفجوة في الفهم بينهم وبين المتخصّصين. واستخدام الألفاظ الأصيلة يساهم أيضاً في الحفاظ على وحدة اللّغة عبر التاريخ؛ لكي لا يكون من العسير على القارئ أن يفهم نصوصاً قديمة كتبت قبل مئات السنين. وعلى سبيل المثال نجد أنه عوضاً عن كلمة "المستشفى" كان القدماء يستخدمون كلمة "بيمارستان"، وهي كلمة ذات أصل فارسي لا يمكن لقارئ العربية اليوم أن يعرف معناها دون شرح.

وأياً كان الأمر فإنّ حتمية تغيّر اللّغة عبر القرون لا تعني أنه ليس من الممكن لأهل

اللغة محاولة توجيهه ركونه - قدر الإمكان - نحو الأصيل عوضاً عن الدّخيل.

أسئلة البحث

نحن في هذا المقال المقتضب في صدد الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما الدليل على معرفة أبي العلاء بمعايير التمييز بين الأصيل والدخيل؟ وما هي مناهجه لإثبات كلمة بأنها ذات أصل عربي أو نفيها؟
٢. ما هي معايير المعرّي في إرجاع بعض المواد الدخيلة إلى لغتها الأصلية؟ وكيف يتعامل مع مسألة الدالّ والمدلول؟

أهمية البحث

تبدو أهمية هذا البحث في علاقته الوطيدة بعملية التعريب الحديثة التي أصبحت لذاتها، ظاهرة لغوية بارزة تشغل بال المعنّيين بسلامة اللغة العربية، والمهتمين بسبل الحفاظ عليها، إذ سنخصّص عملنا هذا لبحث معايير الأصيل والدخيل في اللغة العربية لدى أبي العلاء المعرّي لأنه ذا معرفة أصيلة بأصول المفردات المعرّبة والدخيلة، ويمتلك زمام اللغة ويعمق معرفته باللغة التي يتناولها بالدرس والتحليل؛ ثم ندرس كيفية معاملته مع قضية الدالّ والمدلول.

خلفية البحث

التعريب ليس بدعاً في العربيّة، فالقدماء عالجوا هذا الموضوع ووضعوا له القواعد، كما أنّهم اهتمّوا بالمعرّب في القرآن الكريم وغيره من كلام العرب، فهناك العديد من المؤلفات التي تُعنى بالمعرّب والدّخيل في العربية، منها: كتاب «المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم» للجواليقي، وهو في هذا الكتاب قام بـ عزو كلّ كلمة إلى لغتها الأصلية، إذ وقع خطأ في كلام اللغويين في هذا الصّدّد بالنّسبة إلى بعض الكلمات، مثل كلمة الأستار، والإسفنط، والبند، والروشم، والفندق، فقد ذكر اللغويون أنّها من الفارسية، وهذا ليس بصحيح. ذكر أصل الكلمات الدخيلة مكتوباً بحروفه الأصلية وكتاب «الألفاظ الفارسيّة المعرّبة» للسيد أدّي شير و«تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة

العربية مع ذكر أصلها بحروفه «لطوبيا العنيسى، و«دلالة الألفاظ» للدكتور إبراهيم أنيس، و«قضية التعريب ومتطلبات العصر» للدكتور يحيى محمود على الجندى، و«المعرب والدخيل في اللغة العربية» لعبد الرحيم عبد السبحان. كما ألفت فانيا مبادى عبد الرحيم «القول الأصيل فيما في العربية من الدخيل» وهو يشتمل على تحقيق نحو ٥٠٠ كلمة مما فات الجواليقي ذكره في كتابه «المعرب» وكتاب «سواء السبيل فيما في العربية من الدخيل» يشتمل على تحقيق ٤٠٠ كلمة مما فاتته في كتابه السابق «القول الأصيل» الذى وعد فيه أن يواصل البحث للكلمات التى فاتته والمقالة التى نشرها الدكتور على جاسم سلمان تحت عنوان «اختلاط اللغة العربية وتداخلها مع اللغات الأخرى» وكثير من المقالات التى لم يفسح المجال لذكرها. أمّا موضوع دراستنا فلم يحظ بدراسة شاملة جامعة حتى الآن. موضوع الأصيل والدخيل من الموضوعات التى أثارت انتباه كثير من اللغويين والنحاة فى الأدب العربى وتناوله علماء اللغة وفحواها منذ القرن الثانى الهجرى، على سبيل المثال، "الخليل بن أحمد الفراهيدى" قد تناول العُجْمَة صوتياً فى مقدّمة كتاب العين. (الفراهيدى، ١٩٨٠م، ج ٢: ٣٠٣) وتناولها سيبويه من زاوية صوتية صرفة فى بابين، سمى أولهما بـ«هذا باب ما أعرب من الأعجمية» ووسم ثانيهما بـ«هذا باب أطراد الإبدال فى الفارسية» (سيبويه، ١٩٨٩م، ج ٢: ٣٠٥)، بسط القول فيهما حول منهج العرب فى تعريب الألفاظ الدخيلة من حيث الصّوت والبناء قاصداً إدراج هذه المفردات الدخيلة فى نظامهم الصّوتى والصّرفى.

وقد عالج ابن جنّى هذه الظاهرة فى باب سمّاه "باب فى أنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب" (ابن جنّى، ١٩٧٥م، ج ١: ٣٥٧) وتكلّم أصحاب المعاجم عن هذه القضية المثيرة للجدل، أى عن مسألة اقتباس اللفظ الأعجمى وعن الأصيل والدخيل وتناولوها من زوايا مختلفة ومقاربات متنوّعة خلال آثارهم ولم يتمّ الإستقلال بالتأليف فى هذه الظاهرة إلا فى الأزمنة المتأخّرة. غير أنّ الاهتمام بهذه القضية لم يستند إلى

١. على سبيل المثال ألفت أبو منصور الجواليقي كتاب "المعرب من الكلام الأعجمى" وألف جلال الدين السيوطى كتابه "المهذب فى ما وقع فى القرآن من المعرب" وألف شهاب الدين الخفاجى "شفاء الغليل فى كلام العرب من الدخيل".

خلفيات وأسس نظرية وتنظيرات ولم يتجاوز الانشغال بالظاهرة في الجانب التطبيقي، وأدى ذلك إلى غلبة الإضطراب والتشويه والفوضى الإصطلاحى التى رافقت تجلّى هذا المبحث في المؤلفات المعجمية القديمة ونتج عن ذلك أن أطلقت على اللفظ "الدخيل" مسميات شتى منها: الأعجمى والمعرب والدخيل. ولكن أى من هذه الدراسات لم تعالج قضية التعريب لدى المعرى على انفراد ولم تفصل القول فيه.

الأصيل والدخيل والتعريب لغةً ومصطلحاً

إنّ العرب كانوا في اقتراضهم للألفاظ الأجنبية يعمدون كثيراً إلى تلك التى تعبر عن أمور غير مألوقة في شبه الجزيرة من أزهار وطيور وخور وأدوات منزلية وغير ذلك من كلمات تتطلبها مظاهر الحضارة والمدنية لدى الأمم العريقة التى تتآخم الحدود العربية كالفرس واليونان، أى أن استعارتهم في مثل هذه الحالات كانت تصدر عن ضرورة وعن حاجة ملحة، على أنهم قلما اقتبسوا الألفاظ الأجنبية التى لها نظائر في لغتهم في المعنى والدلالة إعجاباً بأصحاب هذه الألفاظ والشعور بأنهم أرقى ثقافة وحضارة أو للدعاية والتفكّه. (أنظر: أنيس، ١٩٦٦م: ١٠٩)

بناءً على ما تقدّم، فالذى أخذه العرب وأضافوه إلى لغتهم من اللغات العالمية، والذى عربّوه، والذى درجوه ضمن لغتهم كما هو دون تعديل فيه، يتطلّب منّا بدايةً تحديد معنى كلّ من الأصيل والمعرب والدخيل.

فالأصيل: من الأصل أو الأساس، هو الكلمة العربية النقيّة، التى لا لبس فيها ولا شك بعربيتها الصّافية، هى كلمة معروفة ومتناقلة ومستعملة في نتاجنا العربى ومتّفق على أنها مستعملة وشائعة منذ الجاهلية وحتى اليوم.

والمعرب: يعنى به «نقل اللفظة الأجنبية بحالها إلى اللغة العربية» (الجوالقى، ١٩٨٤م: ١٣)، مع نوع من التعديل أو التغيير في صورتها بحيث يتناسب مع القواعد الصوتية والصرفية للغة العربية.

إذن "الدخيل" هو اللفظ الذى دخل العربية إما بلفظه ودلالته تماماً، أو بتحريف طفيف في النطق، نحو كلمة "جرمك". وقد قيل بأنّ الدخيل هو الهجين والغريب، والذى لا

يتمّ بصلة في أيّ من جوانبه إلى اللّغة العربية، لأنه دخل كما هو في زبّه وإطاره الأجنبي، كما أنه اعتمد كما هو دون تغيير وتبديل وإضافة وحذف من قبل مجامع اللغة العربية، ومواقفة اللّغويين العرب. (أنظر: ابن منظور، ١٩٩٤م، ج ١: ٢٤١؛ والخطيب، ١٩٦٧م: ٢٠-٢٤) والعلماء القدماء أحياناً لا يفرّقون بين المعرب والدخيل كما نشاهد لدى أبي منصور (الأزهري، ١٩٦٧م، ج ٦: ٢٥٧) وجلّ ما يفرّقون بينهم أنهم يحسبون الدخيل أعمّ من المعرب (الجواليقي، ١٩٨٤م: ١٧)، وقد نشاهد الأمر ذاته عند ابن منظور في لسان العرب، فلا يعدو الدخيل اللّغوى عنده إلا أن يكون إشارةً مُجتزأة إلى جوهر المصطلح بمفهومه الأعمّ الأشمل، وهذا يدلّ على فهم متطورّ جليّ لظاهرة الدخيل في اللغة العربية، يقول: وكلمة "دخيل" أدخلت في كلام العرب وليست منه، استعملها ابن دريد كثيراً في الجمهرة. (ابن منظور، ١٩٩٤م، ج ١١: ١٦-١٧)

فالدخيل والكلام الأعجمي هنا وُضعا في مقابل العربي الصحيح، وتلك صورة تزيد مفهوم الدخيل وضوحاً وتعزّز استقراره مصطلحاً. وهكذا تعمّم هذا المصطلح "الدخيل" بعد ذلك في تعابير حديثة من مثل "المصطلحات الدخيلة، والعلوم الدخيلة" وما شابه ذلك مما استُعيّر وأُخذ من اللّغات الأخرى.

١. لو استعرضنا ما ذكره المؤلفون وجمعه اللغويون من الألفاظ الدخيلة سواء قبل الإسلام أم بعده لحصلنا على النتائج التالية:
٢. إن عدد الألفاظ الأجنبية الدخيلة قليل جداً قياساً إلى المفردات العربية أو قياساً إلى الألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى كالفارسية.
٣. إن هذه الألفاظ التي دخلت العربية تتعلق بالحسيات والمصطلحات الإدارية لا بالمعنويات وقليل منها من مصطلحات الفلسفة وما إليها.

إن ما دخل العربية من ألفاظ غريبة لم يبق في أكثر الأحيان على حاله بل صيغ في قالب عربي، فغيرت حروفه إذا كان فيه من الحروف ما ليس في العربية وتبدّل شكل تركيبه وبنائه حتى يوافق الأبنية العربية أو يكون قريباً منها. (الكبير، ١٤٢٣ق: ١٣٦) والدّرس المعجمي الحديث يميّز بين المعرب والدخيل ويذهب أصحابه إلى أن المعرب هو الأعجمي الذي نقل إلى العربية ودخل في نظامها الصّوتي والصّرفي، بينما الدخيل هو

الذى نقل إلى العربية ولكنه حافظ على عُجمته ولم يخضع للنظام الصّرفي، أى أنّ الأبنية والأوزان العربية لم تتسع لبنيته، فهناك تبدو المفارقة بينهم وبين القدامى استخدموا هذه المفاهيم والمدلولات كمرادفات أحياناً، فكان المعرب والدخيل سميت مولداً و على سبيل العموم كان الدخيل عندهم نقيضاً للأصيل.

مدلول الأصيل والدخيل لدى المعرى

إنّ أبا العلاء المعرى مجارة للقدامى العرب وكما أشرنا، إذ لا يفرقون بين الأعجمي المعرب وبين الدخيل، يستبدل مصطلح الدخيل بالأعجمي وقليلاً ما، يعتقد بنو الكلمة الدخيلة على اللغة العربية؛ فيرى بأنّ الكلمة الدخيلة حين ورودها في أتون اللغة العربية، تدخل في النظام الصوتي والصرفي لها، فتتم إزالة العجمة عنها، نتيجة لصدورها عن هذه الرؤية لا يذكر في آثاره مصطلح "الدخيل"، مجارةً للمصطلح الشائع آنذاك، إذا فهم من هذا المصطلح معنىً نتوء وعدم انسجام الكلمة المعربة مع النظام القواعدي للغة العربية، فهو أساساً ينطلق من المقابلة بين الأعجمي والعربي ولتحقيق غرضه يعتمد على أكثر الألسنة تأثيراً في اللغة العربية، فيكون التعريب عنده منهجاً والمعرب نتيجة والأعجمي عنده مرادف للفظ "الفارسي"، على سبيل المثال يذكر أنّ: «الأكاسرة: جمع كسرى وهو ملك العجم وهو تعريب خسرو في الفارسية» (المعرى، ١٩٦٥م، ج: ١، ١٠٤) وتعريب المادة يعني دخولها في نظام اللغة العربية صوتياً وصرفياً وما عرّب يُنعت بصفته قبل تعريبه؛ فهو أعجمي أو فارسي وللمصطلحين نفس الدلالة. ف«الكديون: أعجمي معرب جرى مجرى العربي» (المعرى، ١٩٤٤م: ٢٥٣) و«الزردق: فارسي معرب» (المعرى، ١٩٦٥م، ج: ٣، ٣٠٥) الذي هو معرب "زرده" في الفارسية. و«الملاب: ضرب من الطيب فارسي معرب». (م.ن: ٤١١)

وإذا حافظت المادة على عُجمتها أو فارسيتها ولم يخضع لنظام العربية، يكتب فيها بأحد الوصفين: أعجمي أو فارسي، ف«جهنم: اسم أعجمي» (المعرى، ١٩٤٤م: ٢١) و«آرى: بالفارسية نعم» (المعرى، ١٩٣٨م: ٤٢١) وقد يكتب بالإشارة إلى تعريب المادة دون ذكر ما كانت عليه قبل ذلك ف«السجل: معرب». (المعرى، ١٩٥٧م، ج: ٢، ١٢٩)

نستنتج من خلال الملاحظات التي أوردها أبو العلاء في نصّه المعجمي أنّه كان ذا معرفة أصيلة بهذه اللّغة فهو يذكر أصل المعرّب في لغته ويدلّ على اتقانه اللّغة الفارسية وغيرها من اللّغات. على سبيل المثال يذكر أنّ أصل "كسرى" "خسرو" بالفارسيّة وقد يقترح للكلمة العربيّة ما يقابلها بالفارسيّة، «والمطر: الخيط الذي يقدر عليه البناء وهو الإمام واسمه بالفارسية التّر» (المعرّي، ١٩٣٨م: ٢٩٥) ولا يمكن لمن يقوم بهذه المهمّة أن يكون جاهلاً باللّغة التي يقترح منها ما يقابل الموادّ العربيّة. ويشدّ أزر هذا المعتقد الجازم بما يوليه من عناية لما يطرأ على أصوات اللّفظ في لغتها الأمّ من تغيير عند تعريبها، ف«الدّشت: الصّحراء وهي فارسيّ معرّب أبدل منه السّين شيئاً علامة للتّعريب» (المعرّي، ١٩٦٥م، ج ٤: ٣٩٧) وقد يؤرّخ المعرّي للتداخل اللّغوي أو الفارسيّ ودخوله في الإستعمال لأوّل مرّة. من ذلك أنّ «النيروز: فارسيّ معرّب ولم يستعمل إلا في دولة بني العبّاس، فعند ذلك ذكره الشعراء.» (المعرّي، ١٩٣٦م: ٩٨)

مواصفات عُجمة الكلمة وأصالتها عند المعرّي

يحدّد المعرّي معيار عُجمة الكلمة أو انتماءها إلى لغة الفرس بعدم خضوعها للنّظام الصّرفي الذي يعدّ من القواعد الأساسيّة في قبولها أو رفضها ويتأكّد ذلك بعدم وجود بناء صرفيّ يوافقها أي تكون على باب الصّدفة ف«دانيث: كلمة أعجمية ولم يوافقها من العربيّة بناء يجعل اشتقاقها منه لو كانت من العرب، لأنّ حقيقة وزنها "فاعيل" واشتقاقه من الدّنت، لأنّ الألف والياء زائدتان وليس في الدّنت شيء معروف.» (المعرّي، ١٩٥٧، ج ٢: ١٦٥) وقد يدخل الأعجميّ في النّظام ومن علامات ذلك صرفه، أي قبوله حركات الإعراب حسب موقعه في الجملة ووروده على وزن قائم في النّظام. غير أنّ تعريبه قد يتمّ عن طريق الموافقة ف«سنير، حقّه أن لا ينصرف لأنه أعجميّ، إلاّ أنّه يوافق اشتقاق السّنر وقيل إنّه سوء الخلق وليس بمعروف وزعموا أنّه من اشتقاق السّنور وهو الهُرّ. والسّنور: السّلاح أعجميّ أيضاً وقد وافق هذا في الاشتقاق.» (المعرّي، ١٩٥٧م، ج ٢: ١٣٤)

ولم يغفل أبو العلاء أن يعلّق في شرحه على غير الفارسيّ أصلاً من الموادّ اللّغوية

المقترضة الدخيلة، ف«الإسفنط ضرب من الشّراب يقال أسفنط وإسفنط وهو رومى
معرب وربما قالوه بالدال، قال الأعشى:

وكان الإسفند الذكى من المسد ك ممزوجة بماء زلال

(م.ن: ٢٣)

و«البرسام بالسريانية ورم الصدر، لأن البر: الصدر و السام: الورم وهو داء يكثر
فيه الهذيان.» (المعرى، ١٩٦٥م، ج ٢: ٢٣٣) وفي تعليقه على بيت لأبى تمام ذكر أنّ
«بعض الناس ينشد "من عهد إسكندرا"، فيثبت في آخره ألفاً وذلك من كلام النبط،
لأنهم يزيدون الألف إذا نقلوا الاسم من كلام غيرهم، فيقولون خمراً يريدوا الخمر.»
(ديوان أبى تمام، ١٩٨٤م، ج ١: ٤٨)

ويبدو أنّ حظّ المعرى من الإطلاع على اللغات الأجنبية التي أقرضت اللغة العربية
لم يتجاوز كما ذكرنا سابقاً، أبسط المظاهر ولعله كان في معرفته بالفارسيّة أحسن حالاً
منه في معرفته ببعض اللغات السامية، فقد التبس عليه مثلاً أمر بعض الموادّ، فتردد
في انتمائها، كما يلاحظ في بعض شروحه «برقع: اسم من أسماء سماء الدنيا وهو اسم
سريانى أو عبرانى ويقال: إنّ اسمه بريقعا.» (المعرى، ١٩٣٨م: ١٧٨)

والملاحظ أنّ سمة التردد هذه لم تكن مختصة بأبى العلاء المعرى، بل مثلت ظاهرة شملت
العديد من المعجميين وقد يشترك الاثنان في التردد في معرفة أصل اللفظ فيستعملان
فعلاً قلبياً هو "حسب" نقياً وإثباتاً، ف«الطهيوح» طائر عند ابن دُرَيْد وكذلك عند
الأزهري ولكن الأوّل علّق على ذلك بقوله: "ولأحسبه عربياً" وقال الثانى "أحسبه
عربياً". لقد اتفق الاثنان على عجمة هذا اللفظ رغم اختلاف أسلوب المعالجة ولكن
تعريفها بقى أقرب إلى الشكّ منه إلى اليقين ويؤكد ذلك سكوتهما عن تسمية اللغة
المقترضة. وهذا يفسّر رأينا بجهل صاحب الجمهرة وصاحب تهذيب اللغة التي ينتمى
إليها لفظ "الطهيوح".

وفي نفس السّياق قال الليث في تعريب "مدج" أحسبه معرباً ويتجلى التردد كذلك
في استعمال بعض المعجميين أكثر أفعال القلوب دلالة على الشكّ وهو فعل ظنّ، فقد
قال الجوهري في تعريف الإنجبات «أظنه معرباً.» (الجوهري، ١٩٩٠م: ٢٣٥)

ويبدو أن هذا الموقف ناتج، إضافةً إلى قلة المعرفة باللغات الأجنبية المقترضة، عن الصعوبة في تبيين الأصل وهي قضية لا تخلو بدورها من إشكالات، إذا علمنا أن بعض الألفاظ في العربية تعود إلى أصول سريانية موغلة في القدم أو إلى "عربية ممتة" حسب تعبير أبي العلاء.

إن جهل الأصل العربي لبعض المداخل وعدم التأكد من اللغة المقترضة مسألة كانت لها بصماتها وعلاماتها في المعالجة المعجمية العلائقية وقد تجلّى ذلك في تعريف بعض المواد، فقد ربط أبو العلاء بين مظهرين أو هما تقريرى بالسلب ويتعلق بنفى الأصل العربي وثانيهما تبريريّ بالإثبات ويتصل بإقرار الإستعمال من لدن القُدّامي، مما يدعم شرعية اللفظ في الجريان على الألسنة. ف«الدروب ليس أصلها عربياً ويقال إن أصله غير عربيّ، إلا أنّهم قد استعملوه قديماً ولما جاء في القرآن الكريم عرفته العرب وردّته في أشعارها.» (ديوان أبي تمام، ١٩٨٤م، ج ٢: ١٧٠)

وإذا لم يتوفّر لأبي العلاء أن يرجع بعض المواد الدخيلة إلى لغاتها الأصلية، فقد اعتمد المعطيات الصّرفية واتّخذ من الوزن وحروف الزيادة، مقياساً به يحكم للمادة أو عليها بالإنتماء إلى اللسان العربي أو لغيره من الألسن الأجنبية، ف"الأندلس"، بناء مستنكر إن فُتحت الدال وإن ضُمّت وإن حُمّلت على قياس التصريف وأجريت مجرى غيرها من العربيّ، فوزنها فعلل وهذا بناء مُستنكر، ليس في كلامهم مثل سفرجل ولا "سفرجل"، فإن ادّعى مدّع أنها "فعلل" فقد خرج عن حكم التصريف، لأنّ الهمزة إذا كان بعدها ثلاثة أحرف من الأصول، لم تكن إلا زائدة وعند سيبويه أنها إن كان بعدها أربعة أحرف، فهي من الأصل، كهزمة اصطبّل ولو كانت عربية، لجاز أن يدعى لها أن وزنها أنفعل، أنها من الدلس والتدليس وأن الهمزة والنون زائدتان كما زيدتا في «أنفعل» وهو الشيخ الكبير، ذكره سيبويه فزعم أنّ الهمزة والنون زائدتان وأنّه لا يعرف مثله في الكلام.» (ديوان أبي تمام، ١٩٨٤م، ج ١: ١٧)

وفي تعليقه على بيت البحتری ذكر أبو العلاء أنّ: «الاشتيا م كلمة لم يذكرها المتقدمون من أهل اللغة، فإذا سئل من ركب البحر عنها، قال البحرّيون الذين يسلكون بحر الحجاز يسمّون رئيس المركب "الاشتيا م"، فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي الافتعال

من شام البرق، لأنّ رئيس المركب يكون عالماً بشؤون البروق والرياح ويعرف من ذلك ما لا يعرفه سواه، فكأنه مسمّى بالمصدر من اشتمام؛ كما قيل "زور" وهو مصدر زار ودنف وهو مصدر دنف. وفي البحر سمكة تعرف "بالاشتيم" وهي عظيمة ويجوز أن تكون سميت برئيس المركب كأنها رئيسة السمك وإذا أخذ بهذا القول فهزمة الإشتيم همزة وصل... وإن كان الاشتيم كلمة أعجمية فألفه ألف قطع، كألف إبريسم وإبراهيم ونحو ذلك.» (م.ن: ج: ١: ١٧)

إنّ اعتماد المعطيات الصرفية في تبيين أصل المادة المعجمية وهوية اللسان الذي تنتمي إليه، ظهرت آثاره في مؤلفات أبي العلاء وخاصة في "رسالة الملائكة" التي تمثّل في اعتقادنا معالجة صرفية معمّقة لجملة من الموارد اللغوية التي تجاذبها "الأصيل والدّخيل" وبقيت معلّقة في التفكير اللغوي العربي القديم بين الافتراض والتيقن فاتّفق بشأنها بعض اللغويين واختلف بخصوصها البعض الآخر.

لقد بحث أبو العلاء في هذه الرسالة المتميزة تصوّراً ومضموناً ومنهجاً في أصل "ملك" وفي ما هو عربيّ من أسماء الملائكة مثل منكر ونكير وسائق وشهيد وما هو أعجميّ منها مثل: إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وفي ما هو أعجميّ ولكنّه يوافق وزناً عربيّاً مثل: "موسى" وطرح للنقاش موادّ معجمية عديدة مثل جهنّم وسقر والكمثرة وسفرجل والآية والغاية والشاء والإنجيل والشيطان والمهيمن وغيرها من الموادّ التي اعتمد في تحليلها منهجاً صرفياً مثل خلاصة لما توصل إليه البحث في هذا المجال.

الألفاظ الدخيلة في فكرة المعرّي

إنّ اعتماد المعطيات الصرفية في تبيين أصل المادة المعجمية وهوية اللسان الذي تنتمي إليه، ظهرت آثاره في مؤلفات أبي العلاء وخاصة في "رسالة الملائكة" التي تمثّل في اعتقادنا معالجة صرفية معمّقة لجملة من الموارد اللغوية التي تجاذبها "الأصيل والدّخيل" وبقيت معلّقة في التفكير اللغوي العربي القديم بين الإفتراض والتيقن فاتّفق بشأنها بعض اللغويين واختلف فيها البعض الآخر.

لقد بحث أبو العلاء في هذه الرسالة المتميزة تصوّراً ومضموناً ومنهجاً في أصل "ملك"

وفي ما هو عربيّ من أسماء الملائكة مثل منكر ونكير وسائق وشهيد وما هو أعجميّ منها مثل: إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وفي ما هو أعجميّ ولكنه يوافق وزناً عربياً مثل: موسى وطرح للتفّاش مواد معجمية عديدة مثل جهنّم وسقر والكمثرى وسفرجل والآية والغاية والشّاء والإنجيل والشّيطان والمهيمن وغيرها من الموادّ التي اعتمد في تحليلها منهجاً صرفياً مثل خلاصة لما توصل إليه البحث في هذا المجال.

إنّ الألفاظ الدّخيلة جاءت في آثار أبي العلاء متنوّعة، منها ما عربّ في العصر الجاهليّ ومنها ما تمّ تعريبه بعد مجيء الإسلام ومنها ما لا يكون له في العربية مقابل كـبعض ألفاظ الحضارة والسياسة ومنها ما هو من قبيل المصطلحات الخاصّة ببعض الفنون والعلوم ومنها ما يتعلّق ببعض الدّيانات التي سبقت الإسلام أو ببعض الأعلام الجغرافية. وفي مجال العربّ دائماً عالج أبو العلاء أسماء الأنبياء مثل: إبراهيم وموسى وهارون ولوط وألفاظاً دينية مثل: البطريق والدوقس والمجوس، كما عالج أسماء تتصل بأواني الجنّة وأحجارها وربّانها مثل الجوهر والأباريق والزمرّد والمسك والقرنفل والعنبر أو تعبّر عن المعاملات في الحياة اليومية مثل الدّينار والدّرهم والدّيون أو تعكس الحياة الجديدة التي توغلّ فيها العرب في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية ممّا يتداول في مجالس اللّهُو والغناء مثل بربط وفيهج وغيرها كثير وهذا دليلٌ على أنّ أبا العلاء لم يكن انتقائياً، بل كان يعيش اللّغة بكلّ مستوياتها وهو أمر يفسّر في اعتقادنا مرونة موقفه من فصاحة اللّفظ، فهو بصفته معجمياً يرى أنّ اللّغة أوسع من أن يشملها قانون الفصاحة المحدود مكاناً وزماناً.

وإذا كان أبو العلاء قد استعمل في آثاره عدداً كبيراً من الكلمات الدّخيلة - فقد أحصت فاطمة الجامعي الحبابي في كتابها "لغة أبي العلاء المعرّي في رسالة الغفران" أكثر من مائة وخمسين كلمة دخيلة - ولكنّ أبا العلاء لم يشرح منها إلاّ خمساً وثلاثين كلمة ولعلّ هذا يعود إلى كثرة تداولها بين الناس ممّا أزال كلّ عائق يحول دون فهمها، فلم يجد داعياً لشرحها أو التّعليق عليها، أي تجنّب شرح هذه المجموعة وتناول مجموعة أخرى من الكلمات الدّخيلة، فطرحها كقضية لغوية وناقشها واستعرض آراء اللّغويين بشأنها. ولئن تنوّعت أصول الدّخيل في آثار أبي العلاء، فإنّ الأصل الفارسيّ كان هو الغالب

ويفسّر ذلك بما كان للعرب من علاقة بالعنصر الفارسيّ في الجاهلية وبالجوّ الحضاريّ والسياسي الذي عاشته الدولة العباسية، إذ أخذ العرب من الفرس عاداتهم في الأكل والشرب والحكم وانعكس ذلك كلّ على اللّغة العربية.

مسألة الدالّ والمدلول عند المعرّي

لم تخلُ نصوص أبي العلاء بيّديه الإبداعى والوصفى من إشارات وملاحظات تعكس في مجملها موقفه من الدلالة بصورة عامّة ومن علاقة الدالّ بالمدلول على وجه الخصوص؛ فهو يتعامل مع المسألة على أساس منطقيّ يعيد كلّ دالّ إلى معناه اللغويّ الذي يفيد في أصل وضعه. ولا تُطرح القضية عنده في مستوى الألفاظ العامّة، إفادة المعنى في هذا المجال من بديهيات القول وثنائية اللفظ والمعنى قائمة ما دام الأوّل ترجمان الثانی والمعبّر عنه كالواصف له والناقل لمفهومه من واقع الأشياء إلى المتصورات الذهنية عبر الرّسالة اللغوية وإنّما يطرح الحديث في العلاقة بين الدالّ والمدلول عندما يتعلّق الأمر خاصّة بأسماء الأعلام من الأشخاص والمُدن والمواضع وغيرها. فالاسم عنده لا يخلو من معنى، مهما كانت علميّة.

ذلك أنّ العَلَم علامة والعلامة محيلة بالضرورة إلى مفهوم هو علة كيانها ومبرر وجودها، والعَلَم عند المعرّي ذو صلة بالأصل المعجمي العامّ وهو فرع فيه لما في الأصل من مدلول ولا ينبغي بأيّ حال من الأحوال أن تقطع صلته بحقله الدلاليّ مهما كان المسمّى الذي يعينه.

إنّ اللّغة عند المعرّي هي الحياة وهي نظام يعكس حركة الطبيعة ولا قيمة لأيّ عنصر فيها ما لم يعبر عن مقصد يحيل إلى المعنى، لذا فإنّ انتفاء العلاقة بين الكلمات والأشياء أي بين الدالّ والمدلول ضربٌ من العبثية باعتبار ذلك خروجاً عن منطق النّظام ومقتضياته ومن هنا عدّ المعرّي عدم وجود هذه العلاقة ضرباً من الاعتبارية. فهو يتأمّل في بيئته اللغوية ولا يجد مبرراً لما وُسم به من كُنية، فلا صلة بين دلالة الكُنية وبين واقعه باعتباره كائناً اجتماعياً، باعتبارها دالاً هنا توهم بعلاقة أسريّة ليست موجودة في الواقع. وتودّي به ملاحظة عدم التّناسب بين الدالّ والمدلول في هذه الحالة إلى بيان

ما يشوب نظام العلامات اللغوية من خلل وما دام لكل شيء في الحياة مغزىً، فلا بد أن يكون لكل كلمة في الملفوظ معنىً. قال المعري في بعض تأملاته: «كُنيت وأنا وليد بأبي العلاء، فكأنَّ "علاء" مات وبقيت العلامات. لا أختار لرجل صدق ما ولد له أن يدعى أبا فلان.» (المعري، ١٩٣٨م: ٢٠٩) وفي نفس السياق يقول في اللزوميات:

من عثرة القوم إن كنوا وليدهم أبفلان ولم ينسل ولا بلغا
كالسيف سمي قطعاً وما ضربت به الأكف ولا في هامة ولغا

(المعري، ١٤٢١هـ ج ٢: ١٤٥)

وقال:

وأحمد سمانى كبرى وقلما فعلت سوى ما استحق به الذما

(م.ن: ج ٢: ٤١٦)

وقال:

دعيتُ أبا العلاء ذاك مينٌ ولكن الصحيح أبوالنزول

(م.ن: ج ٢: ٣٤٨)

ويقف أبو العلاء موقف المتعجب من الخلل في نظام الدلالة في بعض الأعلام المشتقة فيقول: «إنَّ الأسماء زُول، سميت المرأة خديجة وخلقها تميم وفاطمة ولم تحدث قط فطاماً.» (المعري، ١٩٣٨م: ٤٤٢) فهو يعبر عن استغرابه من انتفاء العلاقة أحياناً بين الدال والمدلول. ولعلَّ هذا الموقف الرافض لما قد يشوب العلامة اللغوية من خلل هو الذى دعا أبو العلاء إلى محاولة البحث عن معنى لعدد كبير من الكلمات والأعلام، فحاول الربط بين الدال ومعناه اللغوى الأول ولم يقف عند هذا الحد في بحثه، بل تجاوز ذلك إلى تجزئة الدال الصوتى رسداً لعناصر المدلول واستقراءها في مقاطع، من ذلك قوله: «وأما التفاح "فتف وآح" و"النف" وسخ الأذن و"الآح": زعم بعض أهل اللغة أنه بياض البيض وهو طعام ردىء وإن شئت كان الآح حكاية وجع.» (المعري، ١٩٨٤م: ٦٧٥) وكذلك قوله: «وأما السفرجل فقد حملته العامة على قولهم: سفرجل وأنا أتأوله على معنى آخر وهو أن يقال: سفّ رجلٌ والسفّ: الحية.» (م.ن: ٦٧٨)

إنَّ ما نلاحظه هنا هو أنَّ أبا العلاء يبدو صاحب نظرية تأصيلية ترجع كلَّ علم إلى

أصل لغوى عربى غير أن عمله لم يخلُ أحياناً من تعسف إذ زيادة على إهمال عنصر العُجمة في بعض الأعلام منهجاً، طوّع فيه الدالّ ليفيد المعنى وضده فالعلم كالدالّ يؤوّل من منطلق التّفاؤل، فيكون له معنى وقد يؤوّل من منطلق التشاؤم فيكون له معنى آخر ولكنّ المرجع في المدلولين يبقى دائماً المعنى الأوّل الذى أفاده الأصل اللغوى وهنا يتدخّل العامل النفسى في صنع الدلالة.

إنّ هذه الاعتبارية أو الحلل في نظام الدلالة يقابله أبو العلاء بعثية في المعالجة، إذ قد ينطلق في تناول الظاهرة من مُعطيات ماورائية وهو أمر لا يستقيم والمنطلق العقلى الذى يسم منهجه عادةً.

يربط أبو العلاء قضية الدلالة بموقف المتطيرين، فيسوق أمثلة يعتمد فيها المتطير- في موقفه التأويلي - على العلاقة بين الدالّ والمدلول وتصير الدلالة ذات بُعد نفسى واجتماعى. جاء في "رسالة الغفران" بعد الحديث عن ابن الرومى وتطيره أنه: «حكى عن امرأة من العرب أنها قالت: سمّانى أبى "غاضبة" وإنما تلك نار ذات غضى، فالحمد لربى على ما قضى. وتزوّجت من "بنى جمرة" رجلاً أحرق وما أمرق، أى لم يكثر مرقه وكان اسمه "ثوربا" وإنما ذلك تراب، فشمتت به الأتراب وكان أبوه يدعى "جندلة" فعضضت عنده بالجندل وما شمتت رائحة مندل وكان اسم أمه "سوّارة" فلم تزل تساورنى في الخصام ولا تنفنى بعضام.» (المعري، ٢٠٠٣: ٤٧٩)

وإذ حملت هذه المرأة الأعلام في أسرة الزوج على الطيرة وكذلك اسمها نجد غيرها من النساء قد تأوّلت على الفأل اسمها وكذلك الأعلام في أسرة الزوج فقالت: «لكن سمّانى أبى "صافية" فصفوت من كلّ قذى وجنبت مواقع الأذى وزوّجنى في بنى سعد بنت بكر، فبكر على السعد وأنجزلى الوعد. واسم زوجى "محاسن" جزى الصالحة فقد حاسن وما لاسن واسم أبيه "وقاف" رعاه الله فقد وقف على خيره وأكثر لدى ميره واسم أمه "راضية" رضيت أخلاقى ولم تجنح إلى طلاقى.» (م.ن: ٤٧٩)

والظاهر أنّ موضوع التطير أغرى أبا العلاء ببُعده اللغوى فتوسّع في مجاله الدلالى وبين مقارنة العرب بشأنه ولكن رفعاً لكلّ لبس ذكر موقفه منه وأكد أنه ضرب من الظنّ والتوهّم إذ قال: «وقد ذكرت رأى العرب في الطيرة والفأل وأنهم تارة يحملونها على ما

يوجهه الإشتقاق وتارةً على ما يوجهه اللفظ المتقارب وإنما هو ظنٌّ وتوهمٌ. «(المعري، ١٩٨٤م: ٦٩٤)

ووفق هذا المنطلق وقع تخريج المدلول في مدن الشام وقرأها وحصونها ومواضعها على عهد أبي العلاء.

النتائج

١. إنَّ أبا العلاء المعري كان دقيقاً في استنباطه ولم يقع في فخّ الخلط بين مدلولي الأصيل والدخيل ولم يذكر في آثاره مصطلح "الدخيل"، لأنه انطلق من المقابلة بين الأعجمي والعربي أي إنّه اعتمد أكثر الألسنة تأثيراً في اللّغة العربية، فكان التعريب عنده منهجاً والمعرّب نتيجة والأعجمي عنده مرادف لفظة الفارسيّ.

٢. نستنتج من خلال الملاحظات التي أوردها أبو العلاء في نصّه المعجمي أنّه كان ذا معرفة أصيلة بهذه اللّغة فهو يذكر أصل المعرّب في لغته ويدلّ على اتقانه اللّغة الفارسية وغيرها من اللّغات. ولا يمكن لمن يقوم بهذه المهمّة أن يكون جاهلاً باللّغة التي يقترح منها ما يقابل الموادّ العربيّة. ويشدّ أزر هذا المعتقد الجازم بما يوليه من عناية لما يطرأ على أصوات اللفظة في لغتها الأمّ من تغيير عند تعريبها.

٣. إنَّ جهل الأصل العربيّ لبعض المداخل وعدم التأكّد من اللّغة المقترضة مسألة كانت لها بصماتها وعلاماتها في المعالجة المعجمية العلائقية وقد تجلّى ذلك في تعريف بعض الموادّ، فقد ربط أبو العلاء بين مظهرين أوّهما تقريريّ بالسلب ويتعلّق بنفي الأصل العربي وثانيهما تبريريّ بالإثبات ويتصل بإقرار الاستعمال من لدن القُداميّ ممّا يدعم شرعية اللفظ في الجريان على الألسنة.

٤. وإذا لم يتوقّف لأبي العلاء أن يرجع بعض الموادّ الدّخيلة إلى لغاتها الأصلية، فقد اعتمد المعطيات الصّرفية واتّخذ من الوزن وحروف الزيادة مقياساً به يحكم للمادّة أو عليها بالانتماء إلى اللسان العربيّ أو لغيره من الألسن الأجنبية.

٥. هو يتعامل مع مسألة الدالّ والمدلول على أساس منطقيّ يعيد كلّ دالّ إلى معناه اللغويّ الذي أفاده في أصل وضعه. ولا تطرح القضية عنده في مستوى الألفاظ

العامة، فإفادة المعنى في هذا المجال من بديهيات القول وثنائية اللفظ والمعنى قائمة ما دام الأوّل ترجمان الثّاني والمعبّر عنه كالواصف له والناقل لمفهومه من واقع الأشياء إلى المتصورات الذّهنية عبر الرّسالة اللّغوية وإنما يطرح الحديث في العلاقة بين الدالّ والمدلول عندما يتعلّق الأمر خاصّة بأسماء الأعلام من الأشخاص ومُدن ومواقع وغيرها.

المصادر والمراجع

- ابن جنى، أبو الفتح عثمان. (١٩٧٥م). الخصائص. تحقيق محمد على النجار. بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٤م). لسان العرب. اعداد وتصنيف يوسف خياط. بيروت: دار لسان العرب.
- أبو تمام، حبيب بن أوس. (١٩٨٤م). ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أنيس، إبراهيم. (١٩٦٦م). من أسرار اللغة. القاهرة: الأجلو المصرية.
- الجانعي الحبابي، فاطمة. (١٩٩٨م). لغة أبي العلاء في رسالة الغفران. القاهرة: دار المعارف.
- الجواليقي، أبو منصور. (١٩٨٤م). المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم. دمشق: دار القلم.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٩٩٠م). الصحاح. بيروت: دار العلم للملايين.
- الخطيب، عدنان. (١٩٦٧م). المعجم العربي بين الماضي والحاضر. القاهرة: مطبعة النهضة الجديدة.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. (١٩٨٩م). الكتاب. تحقيق محمد عبدالسلام هارون. بيروت: دار الكتاب العربي.
- شكيب أنصاري، محمود. (١٣٨٦ش). فنّ الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية. اهواز: انتشارات دانشگاه شهيد چمران.
- الفراهيدي، خليل بن أحمد. (١٩٨٠م). كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. بغداد: وزارة الثقافة والاعلام العراقية.
- المعرّي، أبو العلاء. (١٩٣٨م). الفصول و الغايات. تحقيق محمد حسن زناتي. القاهرة: دارالمعارف.
- _____ (٢٠٠٣م). رسالة الغفران. تحقيق: محمد الإسكندراني. إنعام فوال. بيروت: دار الكتاب.
- _____ (١٤٢١ق). اللّزوميات. حققه و علق حواشيه و قدم له عمر الطباع. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- _____ (١٩٣٦م). عبث الوليد. دمشق: المجمع العلمي العربي.

- _____ (١٩٤٤م). رسالة الملائكة. تحقيق محمد سليم الجندي. دمشق: مطبعة الترقى.
_____ (١٩٥٧م). شرح ديوان ابن أبي حصينة. تحقيق محمد أسعد طلس. دمشق: المجمع العلمي العربي.
_____ (١٩٦٥م) معجز أحمد. تحقيق عبدالمجيد دياب. القاهرة: دار المعارف.
_____ (١٩٨٤م). رسالة الصاهل والشاجع. تحقيق عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي). القاهرة: دارالمعارف.
نورالدين، حسن جعفر. (٢٠٠٦م). الدّخيل في اللغة العربية. مجلة رسالة النجف. العدد ٦. صص ١١٨-١٣٧.



پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی